التداولية؛ مفاهيمها وجذورها الفلسفية واللسانية

Pragmatism, its concepts have their philosophical and linguistic roots

الدكتور. عبد العزيز مصباحي

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة الشهيد حمَّة لخضر-الوادي(الجزائر)
yacinemosbahi82@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/05 تاريخ القبول: 2020/12/06 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص:

يختلف النقاد المحدثون في تحديد مفهوم التداولية، فمنهم من يرى أنها جزء من علم العلامات أو السيميائية، ومنهم من يجعل منها دراسةً لمستويات استعمال الخطاب اللغوي. وهي تنطوي على ثلاثة مستويات: ذاتي، موضوعي، ومستوى مشترك بينهما؛ لذلك وجب الحرص على التفريق بين المصطلحات المتراكمة في كتب اللسانيات؛ وذلك مرده في الأساس لكثرة المقابلات التي قُدِّمَتْ للمصطلح الإنجليزي: «Pragmatics ».

ومن هنا تأتي هذه الورقة البحثية لتبحث الأسباب التاريخية وغير التاريخية التي مهّدت لنشأة اللسانيات التداولية، وتعرض كذلك لمفهوم هذا المصطلح عند مختلف علماء الاتجاهات اللسانية؛ بدءًا من نظرية المنطق والدلالة، وانتهاءً إلى المفهوم التداولي الحديث.

الكلمات المفتاحية: تداولية، فلسفة، دلالة، جذور، خطاب.

Abstract:

Modern critics differ in defining the concept of Pragmatics; Some argue that it is a part of the semiotics, whereas others consider it as a study of the levels of the use of linguistic discourse. three levels are certainly involved in semiotics: A subjective level, an objective level, and a common level between them. Therefore, care should be taken to differentiate between the terminology accumulated in the books of linguistics relating to this fertile area of the linguistic lesson. This is mainly attributed to the large number of the corresponding translations of the English term: "Pragmatics. Hence.

this research paper examines the historical and non-historical reasons that paved the way for the emergence of Pragmatic Linguistics. It

also presents the definition of this term among different linguists from the Theory of Logic and semantics to the modern concept of Pragmatics.

على الرغم من أنَّ التداولية* قد دخلت الخريطة اللغوية مؤخراً، إلا أنها أصبحت عاملا مهما في التفكير اللساني، إلى أن تطورت وصارت حقلا مهما، ومستقلا بذاته، ونحن هنا بصدد إلقاء الضوء على مفهومها لدى اللغويين والدارسين، وقد كان تركيزنا هنا على الأجانب منهم؛ على الرغم من أن التداولية في التراث العربي لها حظ كبير، وواسع خاصة في البحوث البلاغية، بل تمتد جذورها إلى البحوث النحوية الأولى مع سيبويه، وكتابه في النحو.

ولعل ما حملنا على التركيز على الأجنبيين من الباحثين مردود في الأساس إلى أمرين: الأول منهما أننا خصصنا بحثا واسعا ومستفيضا حول الفكر التداولي في التراث العربي، أما الثاني فهو ما يعلق بالتداولية في العقل اللساني العام من إرهاصات وجذور لسانية غربية.

أولا: مفهوم التداولية.

لم يستعمل مصطلح "التداولية" في الأصل في اللغات الإنسانية بل أخذ من علم السيميولوجيا، فنجد (تشارلز موريس ***Charles Morris***)، يرى أنه «ليس مقتصراً على اللغات المنطوقة، فيجب أن نميز العلاقة بين العلامات المستخدمة وما تشير إليه (بعد دلالي)، والعلاقة بين العلامات فيما بينها (بعد تركيبي)، والعلاقة بين العلامات المؤولة؛ بمعنى العلاقة بين العلامات ومستخدميها (بعد تداولي)»[1].

وعرفها معجم La rousse أنها « فرع من اللسانيات يدرس العلاقات بين اللغة والاستعمال والمتكلمين في وضعياتهم التواصلية لدراسة افتراضات سوء الفهم للاتفاقيات الخطابية... »[2]. وبمقابل الجانب التركيبي والدلالي (علم النفس اللغوي، علم الاجتماع اللغوي). نجد أن دراسة الأفعال اللغوية والإنشائية... التداولية تتسع لأنماط الكلام (الزعم) للقول والخطاب، وتشمل شروط الحقيقة والتحليل الاتفاقي[3].

وجاء في تعريفها أنها دراسة المعنى في الألفاظ اللغوية عند مستخدميها ومسخريها، ومن المهم ـــ فيما يخص أصلها ـــ أن نعتبرها واحدة من ثلاثية دراسة ميزها الفيلسوف الأمريكي واستخدمها بعده علماء المنطق أمثال "رودولف كارناب" *RudolfCarnap*، والتداولية في هذا النمط من التفكير هي دراسة الرموز (والأنظمة الرمزية) وعلاقتها بمستخدميها»[4].

والمتأمل في تعريف اللسانيات يرى ـ أنها -حسب ما سبق من التعاريف- تتقاطع كثيرا مع مفهوم (حال الحديث أو الموقف) *La Situation d'énonciation* أو كما يسميها علماؤنا ـ قديما: (سياق مقتضى الحال)؛ لأن التداولية تبحث علاقة العلامات اللغوية بمستخدميها، فهي تقوم على ثلاثية: **الزمان والمكان والموقف**، لأن المجال التداولي يقوم على ثلاثة أصول أو أقسام

هي: العقيدة واللغة والمعرفة، وهي المتداخلة فيما بينها وظيفيا باعتبار الاستعمال؛ حيث لا تتعين الوظيفة التداولية لكل قسم، إلا إذا استُعمِل، حيث لا تكمُلُ الوظيفة التداولية لكل قسم؛ إلا إذا تعلق بالقسمين الآخرين[5]، ولهذا سارت التداولية منذ نشأتها، في اتجاهين هما: الدراسات اللسانية والدراسات الفلسفية*، ففي الاتجاه الأول استعملت التداولية بوصفها جزءا من السيميائية اللسانية وليس بعلاقتها، بأنظمة العلامات عموما؛ لأن المنابع التي أدت إلى تكوين اللسانيات التداولية هي:

السيميائيات المنطقية المرتبطة بنادي فيينا (*Cercle de vienne*)، وسيميائيات (ش.موريس) التي تفرغ عنها تيار يقوم على مكون العمل (Composant du travail)[6]. أما في الدراسات الفلسفية وخصوصا في إطار الفلسفة التحليلية، فقد خضع مصطلح التداولية إلى عملية تضييق في مجاله اللغوي باعتباره مصطلحا معرفيا، فحينما ندرس العلامات اللغوية المستعملة إنما ندرسها بعلاقة مع مستخدميها حتى أننا نتجاوز هؤلاء المستخدمين إلى الإشارة إلى مكان وزمان حدده الكلام، وكذلك الموقف، كما نصل إلى الإشارة إلى زلات اللسان وتداعي الكلمات، ومن هنا ظهر السياق.

كما يمكن أن نقسم التداولية إلى اللسانيات التداولية، والتداولية الاجتماعية، فالأولى يمكن تطبيقها في دراسة الهدف اللساني من التداولية، والمصادر التي توفرها لغة معينة لنقل أفعال إنجازية معينة، والثانية تعنى بالظروف والشروط الأكثر محلية المفروضة على الاستعمال، وهو حقل أقل تجريداً من الأول، فالتداولية تدرس المعنى في ضوء علاقته بموقف كلام ما.

على الرغم من اختلاف التعريفات الموجودة حول التداولية، أو حتى بعض التناقضات الموجودة فيما بينها، نجد أن أغلب التعريفات تتفق في ربطها بالاستعمال اللغوي في عملية التواصل، وذلك عن طريق العلاقة الموجودة بين المرسل والمتلقي والسّياق المحيط، كما يتضح لنا أن هناك علاقة وطيدة بين التداولية والتواصل، ولذلك لقي التيار التداولي أهمية بالغة من طرف اللسانيين، وارتبط بعدّة تيارات أخرى، وهذا ما يدفعنا إلى دراسة نشأة هذا العلم.

ثانيا: نشأة التداولية.

لو تأملنا التراث العربي القديم لوجدنا علماءنا يتميزون بفكر تداولي، حيث أن جل مبادئ التداولية الحديثة حاضرة في تراثنا العربي، ولو بمصطلحات مغايرة، وذلك من بداية طلائع الدرس اللغوي مع سيبويه وصولا إلى النقاد والبلاغيين المتأخرين.

وعن أسبقية العرب لمعرفة أصول هذا الاتجاه يقول سديرتي:"إن النحاة والفلاسفة المسلمين، والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يضيع صيته بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأوربيا، فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة"[7].

فالعرب هم السباقون في ممارسة المنهج التداولي قبل ظهوره كمنهج للأمريكيين والأوروبيين، فجل مبادئ التداولية تجدها مبثوثة في الفكر العربي الأصيل.

إن دراسة اللغة في التراث العربي، ميزتها بعض السمات التي هي من أهم المبادئ التداولية الحديثة، فقد تناول الدارسون مثلا:

- أن التكلم يتم لغايات وأهداف أو إشباع حاجات أو الحصول على فائدة.
- تستعمل اللغة للأغراض والمآرب ذاتها.
- يضفي المتحاورون على الملفوظات دلالات أخرى غير ظاهرة"[8] مثال ذلك: الاستعارات والتشبيهات والكنايات، حيث يتلفظ المتكلم بألفاظ ويقصد معاني خفية غير الظاهرة لتلك الألفاظ.
- "لا تغفل البلاغة العربية ذلك بل إنها تعتمد مبدأ (لكل مقام مقال)[9].

فلو انطلقنا من مبدأ القصدية الذي يعد الكشف عنه غاية الأدوات الإجرائية في التداولية، لوجدنا له أثرا بينا عند سيبويه . ففي معرض حديثه عن الأفعال التي تقتضي مفعولين، يكشف عن أن التأليف النحوي أو ما كنا أريناه عند الغربيين يقع تحت تسمية تداولية الدرجة الأولى، أو مستوى التعبيرين ويخضع في المقام الأول لمراد المتكلم"[10].

ومن أهم مصادر التفكير التداولي اللغوي عند العرب، علم البلاغة، علم النحو، والنقد والخطابة، إضافة إلى ما قدمه علماء الأصول الذين يمثلون – إلى جانب البلاغيين- اتجاها فريدا في التراث العربي، يربط بين الخصائص الصورية للموضوع وخصائصه التداولية.

ويذهب الدارسون المحدثون إلى أن ما قدمه العرب في باب "الخبر والإنشاء" مثلا سواء أكانوا لغويين أم بلاغيين أم أصوليين، لا يختلف عما تعرضه نظرية الأفعال الكلامية الحديثة التي قدّمها "أوستين"وطورها "سيرل" ذلك أن البلاغيين مثلا، تناولوا في باب المعاني "الخبر والإنشاء"

وعلاقتها بالخارج، فالخبر ما احتمل الصدق أو الكذب بالنظر إلى درجة مطابقته للخارج أو مخالفته[11].

أما الإنشاء، فلا يرتبط مفهومه بالصدق والكذب، وتميز مدلوله يتحقق بمجرد التعلق به، وهي الفكرة نفسها التي عرضها "أوستين" في مبحث الأفعال الكلامية، حيث ثار على الوضعيين، وميز بين نوعين من الأفعال: التقريرية والإنجازية، من حيث درجة تحققها في الخارج وموقف المتكلم[12]. يقول أحمد المتوكل في ذلك:" من المعلوم أن الفكر اللغوي العربي يتضمن ثنائية "الخبر/ الإنشاء" التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية الأوستينية "الوصف/ الإنجاز" كما يدل ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء[13].

ومن هنا، يمكن القول أن الدرس اللغوي القديم هو الأرضية التي مهدت لظهور منهج بعنوان واضح: التداولية، من خلال اهتمامه بدراسة اللغة حالة الاستعمال.

ولتشعب جذور التداولية في الفكر العربي؛ فإننا بصدد إنجاز مقال مستقل يبحث الفكر التداولي في التراث العربي القديم؛ في البلاغة والنحو والنقد والخطابة وغير ذلك من فنون التراث العربي وعلومه وآدابه، إيمانا منا بمدى إسهام علمائنا العرب في الفكر اللساني التداولي بصفة خاصة.

ونشأت "التداولية" في ضوء نظرية المعرفة*، فمن المفيد أن نذكر أن نشأة التداولية توافقت تقريبا مع نشأة العلوم المعرفية، ولقد جرى التفكير في الذكاء الاصطناعي في سياق عقلية جديدة، وهي العقلية التي مكنت من ظهور العلوم المعرفية[14]، ومن هنا ظروف تطور كافة العلوم والمعارف كان لابد لعلم اللسانيات أن يتطور هو الآخر وأن يتجاوز الوضعية الصارمة التي تجعل الدراسة اللسانية لا تعد كونها وصفا أو تطويرا مطابقا لما هو في الواقع الكلامي، كذلك اللسانيات الوصفية جعلت الملقي والمتلقي في عملية الكلام كليهما لا يحق له أن يخرج عن قواعد صارمة موضوعة سلفا لا تكشف عن إمكانيات المتكلم والسامع، فليس إنتاج اللغة وتأويلها عمليتين قائمتين على نظام ذي طابع ترميزي حصراً، فوجود نظام ترميزي والمواضعة في اللغة لا شك فيه، إلا أن استعمال اللغة لا يقتصر على مجرد عملية ترميز (بالنسبة إلى الإنتاج) وفك الرموز (بالنسبة إلى التأويل)[15]، ولذلك كان لزاما الخروج بمنهج دراسي جديد يكشف عن طاقات المتكلم والسامع كليهما، فانطلق التفكير في التداولية... من ملاحظة أن الدلالات اللغوية تتأثر بشروط استخدام اللغة، وهي شروط مقننة ومحققة في اللغة[16].

وهناك مجموعة من الأسباب بعضها تاريخي وبعضها غير ذلك مهدت لظهور اللسانيات التداولية، فعلى سبيل المثال جهود (تشومسكي) *Noam Chomsky* اللغوية حيث كانت التداولية ردة فعل على معالجة تشومسكي للغة حيث اعتبرها أداة تجريدية أو قدرة ذهنية قابلة للانفصال عن استعمالاتها ومستعملها، والسبب الآخر هو التوصل إلى قناعة مفادها أن المعرفة العميقة بالنحو والصوت والدلالة لم تستطع التعامل مع ظواهر معينة ذات أهمية بالغة، فجهود (تشومسكي) كغيرها من الجهود اللغوية لم تسلط الضوء على الاتصال اللغوي بين المتعاملين، ولم تتضمن دراسة الظواهر النفسية والاجتماعية الموجودة داخل أنظمة العلامات بشكل عام أو داخل اللغة بشكل خاص.

وقد اهتم الفلاسفة -منذ القديم- بقضية الدلالة، فالمنطق عندهم مثلاً يهدف إلى الإقناع وإلى تقديم الحجج والبراهين التي تثبت الأشياء وتربطها بعضها ببعض، فهذه الأدلة تسمح بربط الكلمة ومدلولها، فمثلا يمكننا أن نستكشف في نظرية العبارة التي دعا إليها "لايبنتز" Leibniz المبادئ الأساسية لتصور الدليل، فالعبارة حسب هذا الفيلسوف تمكننا من التحدث عن الأشياء فيما بينها باعتبار حيثيات الكم والنوع والشدّة، فهم يحسبون أن الإنسان مضطر إلى استخدام نظام من العلامات والأدلة لتمثيل الواقع والأشياء التي تحيط به، وذلك نظرا لتعقيد العالم، فهو محتاج إلى اللغة، وإلى استعمالها ليعبر عن حاجاته، فاللغات هي أحسن مرآة للفكر البشري.[17]

وظهرت الإرهاصات الأولى للتداولية عند "بيرس" *Charles Sanders* Peirce و"موريس" *Charles W. Morris* و"فنجنشتاين" *Ludwig Wittgenstein* ثم عرفت التداولية نوعا من النضج وذلك عند "أوستين" *Charles* W. *Morris* و "سيرل" *Searle*.

1- عند "شارل ساندرس بيرس":

ولد "بيرس" سنة1839 م، وقد اشتهر بكونه سيميائيا، وأما ملامح التداولية عنده فقد ظهرت من خلال مؤلفاته: كيف نجعل أفكارنا واضحة، توفي سنة1914م[18].

يعدُّ الفيلسوف والسيميائي "بيرس" من الأوائل الذين أحدثوا تطورا في المجال اللساني والفلسفي، حيث ارتبطت عنده التداولية بالمنطق ثم بالسيموطيقا، كما ارتبطت بمجال المعرفة والمنهج العلمي، فقد ظهرت ملامح التداولية الأولى مع ظهور مقالة "كيف نجعل أفكارنا واضحة" عام1878م، حيث تساءل "بيرس" متى يكون للفكرة معنى، ودرس الدليل وعلّل إدراكه بواسطة التفاعل الذي يحدث بين الذوات والنشاط السيميائي، وقد حاول تطوير التجربة الإنسانية من خلال الأدلة وربطها بالواقع الاجتماعي.[19]

من هذا المنطلق نجد أن "بيرس" بدأ بالتساؤل والبحث عن كيفية جعل أفكارنا أكثر وضوحا وانتهى إلى أن تصورنا لموضوع ما يقاس بالنتائج العلمية، واعتبر من خلال ذلك التداولية فرعا عن السيميائيات.

2- عند "تشارلز موريس" :

عالم في الدلائلية، أمريكي، ولد في سنة1901م، ومن أهم كتبه: " Language Sig and Behaviour,"" (1946م)، وفيه وضع أسس الدلائلية والنظرية العامة للعلامات.[20]

من مؤسسي ومنظري التداولية الباحث "تشارلز موريس"، الذي اعتبر التداولية جزءا من السيميائية عند تمييزه لثلاثة فروع لهذه الأخيرة، وهي علم التراكيب وعلم الدلالة والتداولية،[21] وهو يرى أن التداولية تعنى بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها، والذي استقر في ذهنه أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب وظرفي المكان والزمان (الآن، هنا) والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل ومع ذلك ظلت التداولية كلمة لا تغطي أي بحث فعليا[22].

يتضح أن "موريس" لا يبتعد كثيرا عن تصور "بيرس"، حيث نجد أن كلا منهما يعتبر التداولية فرعا من السيميائيات.

3- عند "فنجنشتاين":

هو منطقي نمساوي، تحصل على الجنسية البريطانية(1889م-1951م)، وأستاذ الفلسفة في كمبريدج، بحث في أسس الرياضيات، وبداية من سنة1930م اتجه إلى دراسة اللغات الطبيعية، وهو من وضع نظرية"لعبة اللغة"، من مصنفاته" philasophical Investigations"[23].

لقد كان فكر "فنجنشتاين" متأثرا بالفلسفة والمنطق، وقد سعى إلى إيجاد لغة مثالية مطابقة للفكر الفلسفي، لكنه سرعان ما عدل عن ذلك واتجه إلى دراسة اللغة العادية[24]

وكان أهم ما رآه "فنجنشتاين" أن وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، لكن للغة وظائف عديدة كالأمر والاستفهام والتمني، والشكر والتهنئة واللعن والقسم والتحذير...الخ وليست اللغة عنده حسابا منطقيا دقيقا، لكل كلمة فيها معنى محدد، ولكل جملة معنى ثابت بحيث لا تنتقل من جملة إلا ما يلزم عنها من جمل مراعيا قواعد الاستدلال المنطقي، بل الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخدامنا لها في الحياة اليومية، وتتعدد معاني الجمل بحسب السياقات التي ترد فيها فالمعنى عنده هو الاستعمال.[25]

نستخلص مما سبق ذكره أن "فنجنشتاين" كان له دور كبير من خلال أبحاثه التي ساهمت في تأسيس التداولية وذلك من خلال تأثيره بشكل كبير في"أوستين"، ويُعدّ هذا الأخير أحد الأقطاب المهمة التي برزت في الدرس التداولي.

4-جون أوستين:

منطقي ولساني بريطاني(1911- 1960م)، درس الفلسفة في أكسفورد(1952-1960م) لم تصدر له كتب إلا أن مقالاته جمعت في:

- *1961 philosphical papers*
- *1962 Sens and sensilila*
- *1962 How to do Things with words,*[26].

تأثر بمن سبقه كالفيلسوف "فنجنشتاين" الذي اعتبر أن اللغة إنما تستخدم لتصف العالم والوقائع الخارجية، فهو يرى أن اللغة ما هي إلا أداة رمزية تشير إلى الواقع، وقد تصدى "أوستين" لهذه الأفكار ونقدها وأنكر أن تكون الوظيفة الأساسية للغة هي الإخبار، وقد أنكر أن الوظيفة الوحيدة للعبارات الإخبارية هي وصف حال الوقائع وصفا إما أن يكون صادقاً أو كاذباً، وأطلق عليه مصطلح(المغالطة الوصفية).[27]

عندما ألقى الفيلسوف "جون أوستين "محاضرات" وليام جايمس" عام1955م، لم يكن يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات، كان هدفه تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة، ونجح في ذلك، بيد أن محاضرات"وليام جايمس" ستكون كذلك بوتقة التداولية اللسانية، وستمثّل قطب الرحى طوال ثلاثين سنة.[28]

لقد كان لأوستين دور فعّال في تطور التداولية وذلك من خلال المحاضرات التي ألقاها، والتي اعتبر فيها أن اللغة تستخدم في وصف الواقع، وقد طوّر هذه الفكرة، ووضع مجموعة من المبادئ في مجال التداولية، وخاصة نظرية الأفعال الكلامية، والتي أكمل أبحاثها الباحث "سيرل".

5- عند "سيرل":

فيلسوف أمريكي، ولد سنة1932م، وهو تلميذ "أوستين"، واعتبر أن وحدة التواصل هي العمل اللغوي من أشهر مؤلفاته(scpression and Meaning).[29]

لقد كانت جهود "أستين" مركز انطلاق لتأسيس نظرية أفعال كلامية، ولكن ما قدمه لم يكن كافيا لوضع هاته النظرية، ولكن كان كافيا بتحديده لعدد من المفاهيم الأساسية فيها وخاصة مفهوم الفعل الإنجازي الذي أصبح مفهوما محوريا في هذه النظرية،[30] حتى جاء "جون

سيرل" وأحكم وضع الأسس المنهجية التي تقوم عليها، وكان ما قدمه من أعمال حول الفعل الإنجازي كافيا لأن يجعل الباحثين يتحدثون عن نظرية "سيرل" في الأفعال الكلامية.[31]

نستنتج أن الفيلسوف الأمريكي "سيرل" يحتل موقع الصدارة بين أتباع "أوستين" وذلك من خلال إعادة تناوله لنظرية "أوستين" وتطويرها. وبالرغم من كل ما قلناه حول نشأة التداولية وكيفية تطورها إلا أننا نشير إلى أنها علم حديث النشأة، ولم تكتمل تصوراته وملامحه.

من خلال تتبعنا للتعريفات التي وردت حول التداولية، وكذلك نشأتها مرت بنا مجموعة من الأعلام البارزين الذين حملوا لواء هذا العلم.

كما قسّمت التداولية إلى عدة أشكال على اختلاف بين الباحثين الذي أعطى كل منهم تصوره، وسنعرض في هذا المبحث أهم التصورات لأهم الباحثين وهي كالتالي:

أولا: تصوّر "فرانسواز أرمينكو" *Arminco François*:

لقد قام بتقسيمها إلى شقين أساسيين هما:

أ) **الشق الأول:** تداولية اللغات الشكلية وتداولية اللغات الطبيعية.

ب) **الشق الثاني:** ويعنى بتداولية الأنماط اللفظية، وهو قسمان:

ب-1- تداولية أنماط التلفظ، والتي يعود إبداعها إلى تشخيص ألعاب اللغة عند "فنجنشتاين" ومفهوم "أوستين" للقوة الإنجازية، ومفهوم فعل الكلام عند "سيرل".

ب-2- تداولية أنماط الملفوظ، أو الدلالة الإشارية، التي تتسع لتضم العوالم الممكنة عند (Gochet.Hintihha.Montague).[32]

ثانيا: تصوّر "هانسون": *Hanson*

قد صنّف مختلف الاتجاهات التداولية اعتمادا على تشغيلها لمصطلح السياق إلى ثلاث درجات:

أ. تداولية الدرجة الأولى: وتتمثل في دراسة الرموز الإشارية، والسّياق عندها يتمثل في الاهتمام بالمتخاطبين ومحددات المكان والزمان.

ب) تداولية الدرجة الثانية: وتهتم بدراسة طريقة تعبير القضايا في ارتباطها بالجملة المتلفظة، والسّياق بمعناه الموسع هنا(لدى ستالينكر) *stalynker* يمتد إلى ما يحدس به المتخاطبون، إنه سياق الأخبار والاعتقادات المتقاسمة، لا السّياق الذهني.

ج) تداولية الدرجة الثالثة: وتتمثل في نظرية أفعال الكلام،ويتعلق الأمر فيها بمعرفة ما تم من خلال استعمال بعض الأشكال اللسانية، ويعتبر مفهوم السّياق في هذه النظرية غنيا جدا.[33]

ثالثا: تصوّر "جان سرفوني" *Jean Cervoni*

ذكر "سرفوني" أن التداولية بعد "أوستين" تتلخص في ثلاث وجهات نظر، وهي:

أ) وجهة نظر(مارتان) ***Martin***: يذهب إلى أن البراغماتية ليس مجال الجملة، ولكنها تتداخل على مستوى الملفوظ، وهي نتيجة للآلية، الدلالية التي تشكل هذه الكلمة علامة لها.[34]

ب) وجهة نظر"أوزوالد ديكرو" ***Oswald Ducrot***: تتمثل في دراسته للسان والعلاقات المتبادلة بين القول واللاقول ويتناول أيضا القول الفاعل الذي يتجاوز تصّور "أوستين" للأفعال، فهو يتضمن الافتراض المسبق الذي هو وسيلة للقول أو عدم القول، وكذلك دراسة المضمرات والحجاج.

ج) وجهة نظر"آلان بيريندونيه" ***A.Berrendonner***: تتضح من خلال مناقضته لطرح"أوستين": (القول هو الفعل) ومفهوم الفعل لديه متصل بمفهوم الحدث(الحركة)، فالكلام نقيض الفعل والعمل بهذا الطرح، والفعل الوحيد المنجز حين التلفظ هو حركات صوتية، أي الملفوظ، ولقد لقيت وجهة نظره هذه عدة انتقادات.

وهناك محاولات للتوحيد صدرت عن "ستالينكر"في ربطه بين ثلاث نظريات(أفعال اللغة، الاستفراضات، العوالم الممكنة) ويعمل "سيرل" و"فانديرفيكن" ***Vander Decken*** على إبراز الفعل الإنجازي بطموح شكلي وإدماجي هام.[35]

ونجد مجموعة من اللسانيين(التركيبيين،الدلاليين والأدبيين) يدعون إلى إدماج التداولية في التركيب والدلالية، حيث اختزلها بعضهم في الدلالة، وأدرجها البعض الآخر في نظرية التركيب، أما المناطقة والفلاسفة يولون أهمية للسّياق ويعتبرون التداولية مكونا مستقلا ومتكاملا.[36]

من خلال تتبع ما سبق ذكره عن أقسام التداولية نجد أنها قسمت على عدة أسس مختلفة، ونلخص هذه الأسس في النقاط التالية:

- ✓ قسمها "فرانسواز أرمينكو"، في كتابه "المقاربة التداولية" بحسب اللغة الشكلية واللغة الطبيعية وبحسب الملفوظ والتلفظ.
- ✓ قسمها "هانسون" ***Hanson*** اعتمادا على تشغيلها لمصطلح السّياق.
- ✓ قسمها "جان سرفوني" بحسب اختلاف وجهات نظر الباحثين، فمنهم من يرى أنها تتمثل في دراسة العلاقة المتبادلة بين القول واللاقول، ومنهم من كانت دراسته معارضة لطرح "أوستين" في قوله أن(القول هو الفعل)، ومنهم من يرى أن التداولية تتداخل على مستوى الملفوظ.

ما يعني أن التداولية الحديثة تهتم بعلم الرموز (Signe) من ثلاث جوانب كما يقول (لفنسون) *Robert* Levinson:

- الجانب النحوي (Syntaxe) يعنى بعلاقة الرموز اللغوية بعضها ببعض.
- الجانب الدلالي (Sémantique) ويعنى بعلاقة الرموز اللغوية بالأشياء التي تدل عليها.
- الجانب التداولي (Pragmatique) ويعنى بعلاقة الرموز بالمتلقي، وبالظواهر النفسية والحيائية والاجتماعية المرافقة لاستعمال هذه الرموز وتوظيفها[37].

وقد تصدى الفيلسوف (غرايس) *Grace* لموضوع تضمن المحادثة وربطه بمبدأ التعاون (Principe de Coopération) بين المتخاطبين الذي يتجسد في أربع قواعد سلوكية عامة:

- قاعدة الكمية: وتنص على أن تكون مساهمة المتخاطبين بالقدر الكافي دون زيادة أو نقصان.
- قاعدة النوعية: أن تتصف بمساهمة المتخاطبين بالصحة، فلا تحتوي إفكاً أو شيئا لا تعزوه الشواهد.
- قاعدة الهيئة: بحيث تكون المساهمة في الحديث موجزة منتظمة خالية من الغموض والتلاعب بالألفاظ.

كما أن التداولية تقوم على مسألة (التلفظ)، فالتلفظ إذن أساس التداولية في الشكل الظاهري، إذن بدون الأولى لا تتحدد الثانية كعملية، وكلتا العملتين (التلفظ والخطاب) تخصان عامل السياق، الإطار المجهول الذي يبحث عنه في تبعية الخطاب، وفي غيابه، حتى نتمكن من فهم الكلام والغرض منه.

أما الأساس الثاني الذي تعنى به التداولية هو مبدأ (تواصلية اللغة)، فاللغة ـ أصلا – وسيلة تواصل بين المتخاطبين، "فالمهمة الأساسية لا تكمن في التواصل مع اللغة بقدر ما تحدد في التواصل في اللغة، وليدعم هذا التصور سعى إلى بيان استحالة تطبيق خصائص اللغة المنطقية على أي خطاب"[38].

أما مسألة الاقتضاء فهي أساس آخر من الأسس التي تقوم عليها التداولية، وهي أن الكلام الملفوظ في الخطاب قد يقتضي معلومات أخرى غير واردة في التلفظ، وقد يطرح المتلقي أسئلة لذلك، وهذه الأسئلة تسمى: "الأسئلة التي تقتضي عندما أقول: ملك فرنسا"، فهناك عدة أشياء يجب أن تبقى داخل ذهن المتلقي، أفترض: لست متأكدا أن لفرنسا ملكا"[39]. ومن هنا ندرك أن الملقي (المتكلم)حينما يتكلم ليس مجبرا على إعطاء كل تلك المعلومات للمتلقي، وإنما المتلقي (السامع)، يستنتجها من خلال سياق الكلام واقتضائه لأشياء لم تذكر فحينما يأتيك

شخص صديق ويسألك عن صديق آخر (مسافر): هل رأيت فلانا؟، فالسؤال يتجه نحو رؤيتك هذا الصديق أم عدمها. ولكن الشيء المقتضي هو أن هذا الصديق قد رجع من سفره، وهذه المعلومة لم يعطها لك فخاطبك في الخطاب، ولكن اقتضاها سياق الكلام فلا يعقل أن تسأل عن شخص غير موجود أو لم يعد من سفره، فيمكن للمتلقي إذا أن يستنتج من كلام المخاطب أشياء ومعلومات ضمنية لم تذكر في الخطاب.

وهذه المفاهيم المذكورة قد نفهمها نحن بمفاهيم ومصطلحات أخرى . حسب تراثنا العربي الإسلامي . فحينما ننظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[سورة التين،الآية **8**] لا تحكم عليه بأنه استفهام حقيقي بل هو استفهام غرضه التوكيد، "فهنا يرى (أوستين) أن الفعل يتحول من فعل إنجازي إلى فعل تقريري"[40]، وكذلك قولنا (رحم الله فلانا) الظاهر فيه أنه فعل تقريري ولكنه في الواقع فعل إنجازي، وهذا ما يسمى في بلاغتنا القديمة التقرير، والغرض منه الدعاء أو الرجاء أو التمني.

خاتمة المقال:

يمكننا الخروج بخلاصة مفادها أن التداولية، وهي ما يطلق عليه مصطلح: علم التأويل أو علم المقامية أو الذرائع (بالإنجليزية: Pragmatics) فرع من اللسانيات وظيفته تفسير الفرق القائم والمسافة الكائنة بين معاني الكلام الإنساني ومعانى مقصود منتج الخطاب.

وظهرت الإرهاصات الأولى للتداولية عند "بيرس" *Charles Sanders* Peirce و"موريس" *Charles W. Morris* و"فنجنشتاين" *Ludwig Wittgenstein* ثم عرفت التداولية من النضج عند "أوستين" *Charles* W. *Morris* و "سيرل" *Searle*.

وتدرس التداولية مختلف المحددات التي تتعلق بالتداول اللساني بالنسبة إلى المقام والسياق اللذين يعتبران من الشروط الأساسية في طريقة تحقيق التواصل وإنتاج الدلالة بين مستعملي اللغة في علاقاتهم التواصلية المختلفة.

كما أن الاتصال اللساني لا يكون بالرجوع إلى الكفاءة اللغوية وحدها، وإنما هناك جملة من الشروط غير اللغوية التي تُسهم في تحديد الأداء اللساني، ويمكن الخروج بخلاصة مفادها أن التداولية هي ذلك المجال الذي يُعنى بدراسة أفعال الكلام والاقتضاء والاستلزام التخاطبي، وذلك بالاشتراك مع مجالات فلسفة اللغة ومنطق الحجاج وتحليل الخطاب.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأزهري ريحاني، النحو العربي والمنطق الأرسطي، (دراسة حفرية تداولية)، اتحاد الكتاب الجزائريين، د.ط، 2003..

2. آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت لبنان، 2003.

3. جيفري ليش، جيني توماس، اللغة والمعنى والسياق، البراغماتية (المعنى والسياق)، ضمن كتاب الموسوعة اللغوية: "كولنج"، تر: محيي الدين حميدي ، وعبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 141هـ، المجلد الأول. ص:06.

4. الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1986، ص33.

5. حسان الباهي، اللغة والمنطق (بحث في المفارقات)،المركز الثقافي العربي بالاشتراك مع دار الامان الرباط، ط1، 2000.

6. خليفة بوجادي، خصائص التركيب اللغوي في بوابات النور للشاعر الجزائري عبد القادر بن محمد القاضي –دراسة في الوظيفة التداولية- اطروحة دكتوراه ، جامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية، 2006/2005 ص: 83 ،84.

7. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)،2005، ص 118.

8. عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط ،2007، ص158.

9. علي آيت أوشان، السّياق والنص الشعري"من البنية إلى القراءة"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص57 ،58.

10. محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر 2002. ص41.

11. نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة ، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2004. ص198.

12. Dictionnaire de linguistique et de science du langage, larousse. Amazone.France.3em ed. 1995

13. Nouvel autodidactique, Jean-pierre croset , le lièvre de paris Hachette 1994 .

14. La rousse, Ed Robert .paris .france. 2015.

الهوامش والإحالات

* هي الترجمة الحرفية لمصطلح (Pragmatique)، رغم أن هناك من ترجمها حرفية (برغماتية) إلا أن هذه الترجمة الحرفية قد تسبب خلطها مع مصطلح (Pragmatisme) بمعنى النفعية أو الذرائعية.

[1] - Jean-pierre croset ,Nouvel autodidactique , le lièvre de paris Hachette 1994, p 152.

[2]- La rousse, Ed Robert.paris.france. 2015. p 775.

[3] - Dictionnaire de linguistique et de science du langage, larousse. Amazone.France.3em ed. 1995. P:375.

[4]- جيفري ليش، جيني توماس، اللغة والمعنى والسياق، البراغماتية (المعنى والسياق)،ضمن كتاب الموسوعة اللغوية: "كولنج"، تر: محيي الدين حميدي ، وعبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 141هـ، المجلد الأول. ص:06.

[5]-الأزهري ريحاني، النحو العربي والمنطق الأرسطي، (دراسة حفرية تداولية)، اتحاد الكتاب الجزائريين، د.ط، 2003. ص 14.

* ومن هنا جاء اشتقاق لفظ (Pragmatique)؛ بمعنى التداولية من اللفظ (Pragmatisme) بمعنى الذرائعية أو النفعية، باعتبار المفهوم الأول له بعد فلسفي، وهو الأسبق من حيث النشأة.

[6]- الجيلالي، دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ط، 1986، ص 09.

[7]- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية للدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2009م ص: 114.

[8]- المرجع نفسه، ص: 113، 114.

[9]- المرجع نفسه، ص: 114.

[10]- نواري سعودي، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراءات، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص: 32.

[11]- خليفة بوجادي، المجرع السابق، ص: 112.

[12]- المرجع نفسه، ص: 114.

[13]- نواري سعودي، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراءات، ص: 32.

* نظرية المعرفة هي نظرية تناول الكليات.

[14]- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت لبنان، 2003، ص:117.

[15]- المرجع نفسه، ص 47.

[16]- حمو الحاج ذهبية، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)،2005، ص 118.

[17]- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1986.، ص33.

[18]- عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط ،2007، ص158.

[19]- نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة ، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2004. ص198.

[20]- آن روبول وجاك موشلار، المرجع السابق، ص243.

[21]- ينظر، الجيلالي دلاش، مرجع سابق، ص18.

[22]- المرجع نفسه،ص29.

[23]- المرجع نفسه، ص244.

[24]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر 2002. ص41.

[25]- المرجع نفسه، ص42.

[26]- المرجع نفسه، ص244.

[27]- ينظر، الجيلاني دلاش، المرجع السابق، ص22.

[28]- آن روبول وجاك موشلار، المرجع السابق، ص29.

[29]- المرجع نفسه، ص247.

[30]- محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص43.

[31]- ينظر، الجيلالي دلاش، ص25.

[32]- علي آيت أوشان، السّياق والنص الشعري"من البنية إلى القراءة"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص57 ،58.

[33]- المرجع نفسه، ص59.

[34]- خليفة بوجادي، خصائص التركيب اللغوي في بوابات النور للشاعر الجزائري عبد القادر بن محمد القاضي –دراسة في الوظيفة التداولية- اطروحة دكتوراه ، جامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية، 2006/2005 ص83 ،84.

[35]- علي آيت أوشان، المرجع السابق، ص58.

[36]- المرجع نفسه، ص59.

[37]- المرجع نفسه، ص 158.

[38]- حسان الباهي، اللغة والمنطق (بحث في المفارقات)،المركز الثقافي العربي بالاشتراك مع دار الامان الرباط،ط1 ،2000 ص 130-131.

[39] -Jean –Pierre croset , Nouvel autodidactique , p 195.

[40]- الجيلالي دلاش، مرجع سابق، ص 16.